رواية

جـــذور
فـي الجزيـــرة

تأليف
جمعـة العلـــوي

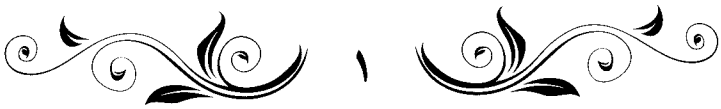

١

البحر يهدر هديرا مرعبا ، والريح (هبوب الكوس) في قوتها المعروفة، يتجاوب معها الموج فيثور كأنه إنسان قام لينطلق راكضا، بل مجموعة متسابقين ، ثم يهوي هذا الموج لينقض على صخور الساحل المسكينة التي لا يفتأ يجلدها جلدا منذ العصور الساحقة، والصخرة تتفتت. تتخبأ فيها حيوانات البحر ، أصداف البحر ، تخرج أحيانا . . تحاول أن ترعى ، لكن الموجة تفجأها ، بهدير يتفتت منه القلب ، فتروح تضم الصخر ، تتخبأ بين الصخرة ، والصخرة تتفتت .

أبو راشد وأم راشد في القارب الذي استأجراه لرحلة النقاهة هذه، لا يسمع لهما إلا أنفاس تتسارع لولا هدير الموج .

أما هي – أم راشد – فإن الحزن لا يزال له كدمات واضحة على وجهها ، وعلى أنفاسها أيضا . الحزن الصامت مرسوم في أنحاء القارب، يرميه القارب في أنحاء البحر ، البحر حزين أيضا ، لا تدري كيف انهد عليها الحزن . مؤمنة لا زالت . الموت لنا درب الجنة ، الرفيق الأعلى ، فأبوها المفقود كان يصلي ، ويزكي ، يتغنى بالقرآن ، قد أوتي مزمارا داوديا . يأمر بالمعروف، ينهى حين يبين المنكر، والذكر له مثل الأنفاس . قد كان لها درب الجنة ، بر الآباء هو الحبل الأوثق،

أوصانا الله . لكن الإنسان هو الضعف ، الضعف جميعاً ، ينهد الحزن عليه مثل البركان ، مثل الأمواج على صخرات البحر المسكينة ، سيان هدير الموج ، زئير الأسد . لكن الحزن لذيذ أحيانا ، الدمع يعيد القلب إلى الإيمان .

وأبو راشد يتردد ، لا يدري ، الثكلى لا زالت جارته ، زوجته، أيخفف من حزن الثكلى أم يرثي نفسه ، يتذكر أيام البحث ، البحث العذب ، أنغام البحث لها معنى ، الفرح الهادي ، القلب يرف ، وجناحاه تضم بزوغ النصر ، أراد أن يقطع الصمت ؛

قال لها : كنا ثلاثة . . . ؟

قالت : أصبحنا اثنين .

قال : لم أكن أتوقع أن يفعل بك الحزن ما فعل .

قالت : هو أبي ، والبر لذيذ .

قال لها : ثبت الأجر إن شاء الله . . . انظري في زرقة السماء ، وبياض السحب ، لا حظي كم هي جميلة الأطيار التي تشكل في طيرانها رقم ثمانية ، والأسماك هنا وهناك ، تقفز ، تلعب ، هل أحضرت شيئا من الطعام . قومي حضري لنا القهوة ، سنعود بعد قليل إلى الأطفال ، إلى الدنيا ، إلى . . . . أراد أن يقول لها (إلى بحث آخر) لكنه خشي أن يعيد عليها حزنها ، ويعكر عليها الصفو الذي يشعر أنها استعادت شيئا منه .

قالت : دعنا نصمت ، أستعذب أحيانا مرور شريط الذكرى ، الذكرى الحلوة والمرة . الذكرى ، الذكرى . . .

٢

ما الذي أتى به إلى هنا ؟

سمعته ، وقد تعودت في الأونة الأخيرة أن تسمع منه بعض الكلمات ، فقد أصبح أبو راشد يفكر بصوت مسموع أحيانا . لا تريد أن تدخل بينه وبين أفكاره، لكنها تخشى على زوجها من الجنون أو الهذيان ، ولعلها إن حدثته بما سمعت يعود إلى التفكير الصامت، لكن حبها للاستطلاع لم يتركها تصمت كثيرا، فسألته : -

من هو الذي تفكر فيه ؟

هل سمعت شيئا ؟

نعم ، أصبحت تفكر بصوت مسموع ، فدعني أشاطرك التفكير ، فعقلان يعملان خير من عقل .

قال لها : أفكر في جدي ، هذه الأيام تشغلني قضية جدي ، حميد ، فإن معظم الناس ينتمون إلى قبائل ، إلا بيتنا ، فإنه مجرد بيت .

قطع عليه الأذان حبال أفكاره ، ردد مع المؤذن ، ثم نهض من فراشة ، توضأ ، أيقظ أبناءه ، ثم انطلق بهم إلى الصلاة .

ظلت هي تفكر في كلماته ، ثم قامت للصلاة هي الأخرى .

وحينما خرج إلى عمله عادت هي إلى التفكير في ما بدءاه، ولاحظت

لأول مرة كتب التاريخ التي أصبح زوجها يهيم بها ، بدلا منها .
ولأجل لفت انتباهه جعلت من برنامجها هذا اليوم : أن ترتب مكتبته، وتجعل كتب التاريخ في مكان بارز .
ستكونين رفيقتي في هذه الرحلة ، قال لها حينما عاد ، وأدرك ترتيبها لمكتبته.
أي رحلة ؟
رحلة البحث عن الجذور .
موافقة بشرط؟
تفضلي ، سأوقع لك على ورقة بيضاء . . ضعي فيها من الشروط ما تشائين.
هذه المرة شرطي سهل ؛ هو أن تخبرني سلفا بتفاصيل خطة الرحلة.
ما زلت أجمع الخيوط ، ما زال الطريق فيه شيء من الغموض ، لم تتضح خطة السير تماما بعد ، لكن أظن أنني جمعت خيوطا لا بأس بها. سأسند إليك مهمة قراءة كتب التاريخ ، وسأهتم أنا بتجميع المعلومات من هنا وهناك.
إلى الآن هناك روايتان ، رواية تقول : إن جذورنا لا تخرج من هذا البلد ، ليس لنا أصول خارجية ، بينما تقول الرواية الأخرى ، والتي أميل إليها مجرد ميل: أننا من عائلة كانت تحكم الجزيرة ، وبسبب مطاردة الاستعمار هرب جدي إلى هذه البلدة ، وما لبث أهل البلدة حتى عرفوا عن علمه فنصبوه قاضيا عليهم ، ثم أمروه على البلدة وما كان تابعاً لها ، وبنى مجده فيها. ربما كانت هذه البلدة عرينه

الآخر لترصد الاستعمار . سأتابع البحث ، وسوف تكونين ذراعي الأيمن لنرى أي الروايتين حق .

في اليوم التالي كان الصباح هادئا ، أنواره بهية ، وأصوات العصافير على شجرة الغاف تعزف نشيد الصباح ، طلب منها أن تحزم الأمتعة. سألته إلى أين المسير ، فأجاب : سأتحقق من رواية الداخل قبل ، ثم سأسافر لأتحقق من رواية الخارج ، أريدك أن تصحبيني في كلا الرحلتين .

طلبت منه التريث ، وأن يؤخر هذا العزم ، لأن أباها مريض ، ولا تستطيع جفاءه .

أبوك صحته طيبة ، وعنده من يمرضه ، ويقف بجانبه .

أنا متحمسة مثلك ، ويسعدني أن أشاركك البحث عن جذورنا ، لكن أعنّي على بر أبي .

في أيام الانتظار كان أصدقاؤه لا يكفّون عن زيارته ، فإذا زاره صديق من منطقة مجاورة أخذ يطوف به بين مآثر البلدة : القلعة الجميلة الحصينة، مليئة ببيوت العائلة ، هنا كان يصنع البارود ، وهناك كانت البرزة ، في هذه الأرائك من الحجارة كانت تجلس الوفود ، وهذه الأريكة الجميلة كانت مخصصة للضيوف الخواص ، وكانوا قليلا ما ينقطعون ، وهناك كانت تنصب المدافع ، وقريبا كان مرسغ[1] الخيل والركاب ، وهذا الباب العجيب الكبير له تاريخ وقصة ، وهذه

---

١. المرسغ: حبل يشد في رسغ البعير والخيل يطلق على مرابطها في بعض أحياء العرب.

الحجارة قصة جلبها أخرى ، بعض البنائين نقش اسمه على الجدار، وهذا الجزء يعرف الجميع أنه من هندسة فلان . عمر القلعة لا يتعدى عمر قدوم جدي . فالناس مجمعون أنها إنما بنيت لجدي احتفاء بعلمه ومكانته . لكنها في وقت الأزمات يسكنها الجميع ، وفي أوقات الأعياد يؤمها الجميع .

في يوم آخر يزورون الجامع الكبير، لكن بعد انشغاله بالجذور أصبح يطلق عليه الجامع العجيب ، مئذنته السامقة كأنها ساعد يد ممتدة ضارعة ، قببه الكثيرة أقواسها كأن كل واحدة منها القمر يوم إبداره، بناؤه العجيب، نقوشه الرائعة ، الأعمدة التي تتوزع بشكل هندسي جميل ، كل شيء هنا حقه أن يصبح مشروع بحث أو رواية ؛ من أين استفاد الناس هذه الهندسة وهذا التصميم؟ الكتب لا شيء منها يحكي التاريخ . للأسف لم يكن في البلدة أحد يكتب أمجادها . . مآثرها . . تاريخها ، إذا لما احتجت إلى هذا الجهد والبحث.

وفي يوم آخر يتوجه بضيوفه إلى (الأفلاج) ، أعجوبة أخرى، وهم آخر ، هل يمكنني أن أسجلها في عجائب الدنيا السبع لتكون ثمان. لو جمعت أفلاج الولاية لكانت نهرا ، بل النهر موجود ، أليس (الغيل) نهرا ، إنه نهر حقا ، يخرج منه ثلاثة أفلاج ، لا تنضب ، بل لا تنقص طوال السنة . كيف اهتدى الناس إلى صناعة فن الأفلاج ، البعض ينسبها إلى جن سليمان عليه السلام، ويبرهن لكلامه بأن المياه الجوفية التي تسقي البلدة ترد إليها من أماكن بعيدة ، تماما كواديها (البطحاء) تتجمع للبلدة من مسافة ١٥٠ كيلا أو يزيد، هل

يعقل هذا؟ وتلك العيون ، والجوابي كيف غفل عنها السواح ، لعل الله سبحانه أراد لجمال هذه البلدة ألاّ يستمتع به إلا أهلها ، كما خلق الحور العين مقصورات في الخيام .

وفي يوم آخر جعل يتتبّع مع ضيوفه السور المحيط بالبلدة ، وأوحى إليهم معاني جديدة ، وشد انتباههم المنارة المتهدمة في أحد زوايا السور، هل هي المنارة التي كتب أحدهم أنها قصفها المستعمر من بارجة كانت في بحر العرب؟ أصحيح أنه وصل حنق المستعمر على أهل هذه البلدة أن يرمي مساجدهم وأبراجهم من بعد؟ . . .

أم أنه فقط أراد أن يجرب مدى دقة سلاحه وجبروته كما هو دأبه في كثير من البلاد؟ أم أنها كانت مجرد خبط عشواء؟ وأخذت الأسئلة تتدفق دون جواب. وأحيانا يذكر لضيوفه قبائل البلدة ، وما هي أصولهم ، وما هي أحلافهم ، وما مدى انتشار هذه القبيلة أو تلك في جزيرة العرب ، وهل هي نفس القبيلة أو تشابه في الأسماء . وأحيانا .. حتى أسماء الأحياء والمقابر لها تاريخ وقصة ذات مغزى .

أما هي فبالكاد وجدت وقتا تتصفح فيه بعض كتب التاريخ وتخطط ما عساها أن تساعد به زوجها في هاتين الرحلتين ، كان جزعها على سقم أبيها شديداً، ولولا إيمانها بالله لشقت الجيوب ، وضربت الصدور ، وذرفت الدموع كلما فارقت سرير مرضه .

قرأت عن منافحة البلدة ضد الاستعمار ، كم مرة هزمت البلدة ، وكم مرة انتصرت ، أين ذهب المستعمرون بالأسرى . قرأت مرة أن أحد أجدادها أخذه المستعمر أسيرا إلى الهند ، ثم رجع مظفرا بعد أن

قضى سنين من عمره في الهند .

ومرة ترقرق الدمع من عينيها حين اطلعت على هروب بعض أهل البلدة من قلعة قريبة كانوا فيها أسرى كذلك حين كان العدو أحد الإخوان . فتمثلت بقول الشاعر :

وأحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

٣

سوق البلدة في سنة ١٨١٥م يضج بالباعة الذين قدم بعضهم من القرى القريبة ، يبيعون الحمضيات ، وبعض الفواكه ، ويشترون السمن والتمر والسمك والمواشي واللحم، فالبلدة تكاد أن يكون فيها اكتفاء ذاتي إلاّ من الحمضيات. . الذين يسومون البضائع يذرعون السوق من أقصاه إلى أقصاه، ولحوم الإبل مفروشة على الأرض ، ترى كومة من لحم ، ورجلاً وميزاناً ، والأصوات واللغط .

يدخل الغريب ، يلفت الأنظار ، يرمقه الكثيرون بأبصارهم ، فهم يعرفون جميع من يرتاد السوق، فإذا دخل غريب عرفوه وميزوه.

لفت انتباه الغريب رجلان كانا يتعاركان ويتجادلان فيمن سيقرع الطبل حول (قبر الولي) . رفع أحدهم خنجره على صاحبه ، قفز إليه الغريب بخفة وخطف الخنجر من يده . تدافعت إلى الغريب نظرات الريبة الإعجاب، البعض أكبر فيه منع الكارثة . والبعض ارتاب في أمره .

تقدم إلى الغريب رجل ، أمسك بيده ، صافحه بحرارة ، ثم اصطحبه إلى القلعة ، حيث يسكن كبير البلدة .

مرحبا بك في البلدة ، يظهر عليك أثر السفر ، لو قدمت إلينا قبل أن

تنزل في السوق ، هنا نستقبل أضيافنا ومن يعز علينا .

أهلا بك يا شيخ ، أنا لا أعرف أحداً ، وصفت لي البلدة ، وذكروا لي اسمك وسمعتك العطرة فآثرت اللجوء إلى بلدتك .

عرف كبير البلدة أن ضيفه قدم إليه من قلب الجزيرة ، وأنه أتى لاجئا كحال الكثير من الذين يتضايقون من أقوامهم ويطلبون اللجوء إلى البلدة لقوة شكيمة أهلها .

لم يمض وقت طويل ، حتى أصبح الغريب واحدا من أهل البلدة ، بني له منزله الخاص به ، وعرفت البلدة ما عنده من علم فنصبته قاضيا .

الشيء الوحيد الذي كان يؤرق القاضي حميد هو القبر ، وما يقام عنده من النذور ، والطقوس .

قال مرة لكبير البلدة :

لا بد من هدم القبر أيها الشيخ ، فإنه وثن ، وما يقام حوله يعد وبالا على جميع البلدة ، يبعدها عن الله عز وجل .

اعتذر كبير القرية ، بأن القبيلة التي تحمي الولي قبيلة عنيدة ، لا يستطاع عليها ، كما أن البلدة تحتاجها لقوة بأسها . فلا يستحسن أن يعكر صفوهم أو يناقش معهم موضوع إزالة قبر الولي ، أو حتى التحجير عليهم في طقوسهم حوله .

لم يزد هذا الجواب القاضي إلاّ عزيمة على إزالة القبر ، ومحاربة الداعين إليه .

٤

كان من عادة أبي راشد أن يخرج بأهله وأبنائه بين الفينة والأخرى في رحلة، كان يحب قرية (رأس الحد) ، يعشق فيها نتوء الرأس الضارب في البحر، ويحب أن يتوجه إلى الجهة الأخرى حيث يبدأ بحر عُمان، وحيث صفاء البحر، ومشاهدة الأسماك بألوانها الزاهية، وظهور السلاحف أحيانا . وكان أحيانا يبيت في رأس الحد . .ينتشي بشروق الشمس ، يسابقها ، يسمعها تطرق باب الجزيرة أول ما تطلع عليها، تحكي له حكايا عن الزمن الغابر. وأحيانا كان يسهر في(رأس الجنيز) يترصد زحف السلاحف إلى رمال الساحل حيث تضع بيضها .

جلس هذه المرة على الصخرة ، وحوله أبناؤه ، وذهبت هي تحضر القهوة والرطب ، وحينما أعطته فنجانا ، وأخذت هي فنجانا آخر ، نظر إليها معجبا بهمتها ، ونشاطها ، وحمد الله على حرصها على مرافقته وموافقته في الهم . بينما كانت هي تنظر إلى أبنائها يصنعون من رمل البحر أنواعا من الحرف الجميلة ، ثم نظرت إلى زوجها .

وجدته مشغولا ، صرف وجهه إلى البعيد ، كأنه يشاهد عائدا من

ممباسا ، أو زنجبار ، أو ربما البصرة أو بمبي ، أو الإحساء . هكذا خيل إليها . . . . قطعت شروده وسألته :

بأيهما تفكر ، بجدك الذي قدم من الهند مظفرا ، أم بالذي قدم من الجزيرة مشرداً ؟ ، وضحكت .

تعلمين أن الخيوط لا تزداد إلا غموضا وتعقيدا . لا أراني أسير إلاّ في متاهة بيت العنكبوت . . . قال لي أحدهم : لكل شيء عيوب ، وعيوب بيتكم صعوبة إثبات نسبه .

نزلت عليّ كلماته كالصاعقة ، احتقن الدم في عروقي ، وكدت من حنقي أن أوجه إلى محدثي صفعة ، أو ركلة ، أو صرخة ، ولم أهدأ حتى نظمت هذه المناجاة التي سأسمعك إياها .

«عجيب أنت أيها القمر».

عشت ردحا من عمري لا أعلم أن لك وجها آخر ، طوال تلك السنين عشت سعيدا بك ، أفرح كفرح النبي صلى الله عليه وسلم يوم تبدأ في كشف وجهك المنير ، خجولا كالعذراء ، وتعلمت من أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم أهله علينا باليمن والبركات، ربي وربك الله ، هلال خير .

ثم أظل أتابعك ، وأنت تكبر يوما بعد يوم، حتى إذا أصبحت بدرا، كنت ألعب مع الصبية عدة ألعاب، كلها لا تحلو إلا وأنت بدر ، أيام كان البحر يرمينا بخيراته .

ثم تظل تصغر ، إلى أن تغيب ، لكنك لا تغيب إلا يوما أو يومين ، ثم تعود للظهور ، بل أنت لا تغيب عن قلبي وخيالي ، تظل صورتك بهية

في مخيلتي . وهذا ابن الجيران اسمه هلال ، والآخر اسمه بدر .

وفي المدرسة تعلمت أن من أسمائك المحاق، وأسماء أخرى .

وحينما كبرت ، ودرجت على القراءة ، قرأت أن لك أيها القمر وجها آخر ، لم أرع ذلك كبير انتباه يؤمئذ ، لكنني ذهلت أشد الذهول يوم علمت أن ثمة أقوام لا يتابعون إلا وجهك المظلم، ما ضر لو سعدوا مثلي ، ومثل معظم البشر بالوجه السعيد المضيء ، ما لهم يظلون ينقبون فيما تخفيه عنا أيها القمر ؟

إني أعذرك أشد العذر في إخفاء ذلك الوجه عنا ، لك خواصك كما أن لكل منا خواصه .

مسكين أنت أيها القمر ، لقد أصبحت مكشوفا في هذه الأيام ، إن أهل الأرض الذين عشت تسعدهم ، وتسكب نورك وتلألؤك من أجل ابتهاجهم أبوا إلا أن ينقبوا عن عيوبك .

قلت لأحدهم : إني مشغول بعيوبي عن عيوب القمر .

قال : لكنني مولع بكشف الأستار .

قلت له : كم هو متعب أن تصنع أو تشتري تلسكوبا ، وتظل تراقب القمر ردحا من الزمن ، تراقب الوجه الآخر ، فقط من أجل أن تخبر الناس بتفاصيل ذلك الوجه . وبعوار القمر .

قال : عساني أضيف إلى الحياة شيئا جديدا .

قلت : حبذا الذي يضيف ، لكن هناك من لا يهوى إلا فضح العيوب والعورات.

قال : نحذر الناس من تلك العيوب إذن .

قلت : لو فقط أعلنتم عن العيوب دون أن تلصقوها بالقمر الذي أحببناه ، وأحبه السمار ، ونظمت فيه القصائد والأشعار لربما عذرناكم.

قال : أصبحنا نكتشف أن هذه العيوب تهدد كوكبنا .

مصمصتُ فمي، وزممتُ شفتي وتركت محدثي دون توديع.

أهلي يقولون : قدم جدي من الجزيرة ، . . والبعض يقول : إنه من إحدى قبائل هذه البلدة ، لكنه سافر يطلب العلم ، ثم عاد وحارب الشرك والأوثان والمستعمر، وآخرون يقولون: إننا من قبائل الداخل. كل هذه الروايات محيرة، لا أكاد أمسك منها بخيط .

لماذا تهتم، وتشغل بالك ، لا أظن أنك ستصل إلى أننا ننتمي إلى سلالة النبي صلى الله عليه وسلم. فليكن نسبنا بعد ذلك إلى أي قبيلة كانت، أليس لنا احترامنا على مستوى البلدة، وعلى مستوى الوطن ؟

كم جميل بالرجل أن يعرف نسبه، وقد أسمعتك أنشودة القمر، فمن الناس من يجعل ذلك نوعا من العيب.

قطع عليهما أحد أبنائهما، انطلق مهرولا إلى البحر، وانزلق في صخراته المدببة كشوك السمر. هرعت إليه، وتبعها، فوجداه سليما، حمدا الله ، ومشوا جميعا بجانب البحر، حولهما الأبناء ينشدون، ويترنمون، ويرمون البحر بالحصيات، ثم تشاغل هو بجمع المحار الجميل، ثم عادا إلى اللاند كروزر ذات الدفع الرباعي .

تشاجر الأبناء أيهم يركب عند الشباك . . توقف . . نزلت هي وركبت

بينهم .. انتقل أحد الأطفال ليركب مكانها وهتف : (يحيا العدل).

وبينما كانت اللاند كروزر تتهاوى بهم في طريق العودة ، كانت أم راشد تنظر إلى الوديان التي بدت على جوانب الطريق تعدو بعكس اتجاههم، سألها :

ما الذي جمعته، فقد طال انتظارنا ؟

لا شيء يذكر ، نعم تذكرت ، شد انتباهي قصة قصيرة ، كتبها أحدهم، أظنني أحضرتها أفاجئك بها .

أخرجت كتيبا صغيرا ، ثم أخذت تقرأ : (وكانت الدنيا كلها فقيرة، وكانت الحروب .. وكان المحتاجون يقصدون أميرنا من كل حدب وصوب، فلا يصدرون من عنده إلاّ وقد أوقر جمالهم بالتمر الكثير.

كان أميراً مستقيماً صالحاً ، يطعم الجائع ، ويكسو المعدوم ، ويحنو على الأطفال ، ويعول الفقراء ، ويكفل المحتاجين ، ويمسح على رؤوس الأيتام . . . . والأمطار تهطل غزيرة . . في موسمها . . لا تتأخر .. كانت – يومها – قلوبنا مجتمعة ، وكلمتنا واحدة .. كنّا جميعا، نأكل في صحفة واحدة . . . ونتقاسم الرغيف الواحد . . . فإذا انتهينا من الحصاد نترك القرية ونرحل مع أميرنا إلى الظراب . .. و بطون الأودية المجاورة، وسفوح الآكام وشعاف الجبال المليئة بالربيع . . . . البحر ليس منّا ببعيد.. و الأيام تمر مرّ السحاب ... ليس إلاّ السعادة وحدها ... واجتماع الكلمة وحدها ... صفاء القلوب .. اخضرار الربيع . . وعبادة الله وحده) . . .

أظن هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على جدنا .

أهل الخير والفضل كثير ، قال لها ، لكن جدنا كان يتصف بهذه الصفات حقا، لذلك التم حوله شمل البلدة وانتخبته قاضيا ثم أميرا .

أيضا قرأت شيئا أعجب من ذلك ، قرأت أن قبيلة بأكملها لم تسلم لإمارة جدي ، فاكتسحها الوادي ، جميعها .

نعم ، فقد قرأت مرة : (أن الله يكتسح الظالمين من وجه الدعاة)، وقد كان جدنا داعية إلى الخير ، وأنقذ الناس من عبادتهم للجن والشياطين ، والأصنام، وتلك القبيلة كان بها من الكبر والغرور ومناوأة ما كان يدعو إليه جدي من الحق ما استحقت به ذلك العقاب.

ذكرتني..فقد لملمت خديجة رضي الله عنها جراح النبي صلى الله عليه وسلم عندما عاد إليها مرعوبا من الغار وهو يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني ، ثم قال : والله يا خديجة لقد خشيت على نفسي ، فأجابته : (كلا والله، لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتحمل الكل، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق) ، فهذه قاعدة عرفتها خديجة رضي الله عنها في الزمن الغابر، وينبغي أن تفسر بها ما شابهها من الإحداث .

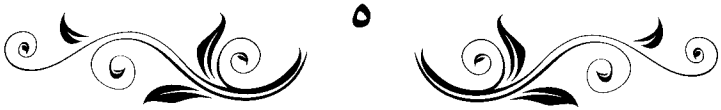

٥

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٢٠م

عزيزتي نانسي

واجهت هذه الحملة أشد المحن صعوبة . . فعندما سمعت أول طلقة أطلقها جنود الكشافة تعلمنا بتحرك العرب ، أعطيت أوامري للسباهين[١] بامتشاق الحراب ، ولكن لم يتحرك أحد منهم ، عندئذ أمرتهم بإطلاق النار فأخذوا يطلقونها بطريقة عشوائية في حين أن العرب كانوا يتقدمون بسرعة ملوحين بسيوفهم .

ظل السباهون واقفين في أماكنهم حتى أصبح العرب على مقربة خمسة عشر ياردة منهم ، حينئذ لاذوا بالفرار ، وقد حاولت تدارك الأمر وإيقاف الفارين ولكن دون جدوى . توجهت إلى الإمام فوجدته جريحا . . . . الناس تتراكض هاربة كالخراف ، وقد رأيت بينهم بعض الأوربيين من رجال المدفعية ، فسعيت إليهم لأثنيهم عن ذلك ولكنهم كانوا من القلة بحيث أنهم لم يستطيعوا تأدية أي عمل .

إزاء هذا الوضع رأيت كل شيء يضيع من أمامي ، فخرجت وستون من رجالي في محاولة للقيام بأي عمل ذي فائدة ، تقدمت نحو ميل من الغاب فرأيت قوات العدو تتقدم لتحيط بجناحي قواتنا لتقطع

١. السباهين: كلمة يطلقها الإنجليز على جنودهم من الهنود.

بذلك طريق المدينة ، لقد لقيت صعوبة بالغة في العودة . إني خائف من أن يكون كثيرون قد فقدوا . . . الإمام يتحدث الآن عن العودة إلى قشم . . لقد وعد بتزويدنا بالجمال لحمل مرضانا السباهين ، والحقيقة هي أن هؤلاء السباهين المتغطرسين ليسوا أهلا لمجابهة السيوف العربية . ولكن ما علينا إلا أن نحاول .

أسألك أن تحافظي على هدوء نفسك وأن تثقي بالعناية الإلهية التي تحيط بنا جميعا .

المخلص لك دائما

ت . ت .طومبسون

٦

حينما طال الانتظار صارح أبو راشد زوجته أنه سيرحل وحده ، واعتذر بأن أباها يستحق أن تبقى بجانبه ، وأنه سينوب عن طيب هذا الحوار العذب معها المراسلة عبر البريد الالكتروني.

لوح بيده وهو يودعها لرحلة الداخل ، قائلا : إنه لا يتوقع انتظارها له أن يطول ، لأن المسافة قصيرة ، ووعدها أن تكون الرسالة الأولى بعد أقل من أسبوع .

بسم الله الرحمن الرحيم ، السلام عليك أيتها الغالية ، عساك وأبوك والجميع بخير حال .

أنواركم لم تزل في الدرب تصحبني

وعذب انغامكم في السير تسليني

زرت إلى الآن فوق العشر مكتبات ، وتصفحت عشرات الكتب ، مؤرخ واحد يتكرر في كثير من الكتب ، يزعم أن جذورنا من الداخل ، وأن قبائل الداخل نشطة في التنقل من قرية إلى أخرى ، وأنه يسهل على الصالح أن يرتقي إلى مستوى القضاء أو المشيخة والإمارة في أي قرية كانت .

لم يشفني ما قاله ، مازلت أحتاج إلى المزيد . سأعود بعد أيام إن

شاء الله . تحياتي لك ولأبيك الصابر ، ولفلذات الأكباد . . زوجك المخلص.

وكتبت إليه . وعليك السلام أيها الحبيب . أبي لا يزال يعاني من السقم ، لكن كما تعرفه لا تبارح البسمة ثغره ، ولا يكف عن المداعبة حتى وهو يتألم، يرسل إليك السلام ، ويكبر فيك الهمة وروح البحث والإصرار، ويشد على يدك مثل ابنته تماما ، ويلومني أن تركتك ترحل وحدك . أما كتبك فلم تزدد إلا غبارا ، لا وقت عندي، اعذرني، لكن أعدك أنني سأتصفح بعضها قبل أن تعود، وسأحضّر لك المفاجآت.

الأطفال مشتاقون لرؤيتك . . المخلصة .

كانت المفاجأة التي أعدتها له : أن أباها أخبرها بخزانة كتب ، عثر عليها مرة داخل القلعة قبل أن تصبح متحفا ، وأنه يحتفظ بها، أخبرها بمكانها أيضا ، فهرعت إليها ، فوجدتها مزيج من الكتب الصفراء ، والمراسلات التي كانت بين جدها ومشايخ القرى الأخرى. كان سروره بهذا الكنز عظيما يوم عودته ، عكف عليها أياما يقرؤها.

عساك استفدت مما جمعت لك ؟ . . سألته .

أشكرك على كل حال ، أنا مسرور بوقوفك معي ، وبالمفاجأة أيضاً ، ولكنني لا أكتمك سرا فقد ازددت حيرة ؟

وكيف ذاك ؟

أسماء عائلتنا لا تختلف عن أسماء البلدة ، وهذا مؤشر فيه قوة أن

جذورنا من الداخل . فخميس ، وسالم ، وعلي ، وعبدالله ، وناصر، وخلفان ، وحمدان ، وراشد ، كلها أسماء تتكرر في الداخل ، ويوشك بعضها ألا يكثر إلاّ في عُمان .

ألا يريحك هذا ويوقفك عن الترحال ، ويغريك للبقاء معنا فإننا محتاجون لبقائك إلى جانبنا ؟ أم أنك مصرّ أن تثبت أن جدنا ينتمي إلى . . . . . ؟

إلى ماذا ؟

لا أدري ! أشعر أحيانا أنك تبحث عن المستحيل ، وتلاحق خيط دخان!.

كانت حمامة على النخلة المجاورة تعزف هديلها ، فالموسم موسم سماع مثل هذا الهديل ، وبعض الطيور المهاجرة بدأ غناؤها يشجي كذلك.

ألا تسمعين ؟ كم هو عذب صوت العود واللقاء ، الكل يفرح به حتى الطيور، دعينا ننسى التاريخ ، ولتصحبيني الآن للقاء أبيك . ولنضرب موعدا غدا الجمعة للقاء العائلة في بيته . سوف يسعده ذلك ، وسأقص على الجميع ما توصلت إليه ، سوف يفرح الجميع بذلك ، أليس كذلك؟ ولعل الله أن يهيئ من بينهم صاحب فكرة ، أو اقتراح .

٧

سوف تتزوجين الغريب ، قالت إحداهن لشيخة ، وأخذت الصبيات يتغامزن ، ويضحكن . . . . نكست شيخة رأسها للأرض ، ومضت لأمها . . شكت سخرية البنات منها .

قالت الأم : يا بنية هوني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما طلب يد امرأة قط وضيئة رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

كان يوم العرس يوما غير عادي ، فقد اصطفت الضرائر يتغامزن قريبا من العروس ، وظلت الأم طوال الوقت بجانب ابنتها ، تهون عليها نظراتهن وتغامزهنّ ، أما القاضي وكبير القرية – أبو شيخة – فكانا فرحين .

لم يحضر العرس أحد من القبيلة حامية القبر . وحين سأل القاضي عنهم متمنيا التقرب إليهم ونصحهم رمقه أبو شيخة بنظرة فهم منها أن عدم مجيئهم هو الأطيب لقبله .

في أثناء العرس والهرج والمرج سمعوا دويا قويا ، ارتجفت له الجدران، اغتاظ كبير القرية ، وبعث من ياتيه بخبر هذا الدوي ، فكان الخبر أن قذيفة أو قذيفتين وقعتا على أحد المساجد والذي بالقرب من أحد القلاع في حدود القرية ، وأن منارة المسجد انهدت لكن لم يصب

أحد بأذى .

هذا المستعمر لا يكف عن شقوته – تمتم كبير البلدة -، إنه يوصمنا باسم القراصنة ، يصف بذلك ما يصنعه بعض صيادي القرية في سفنه التي لا تصنع فيها شيئا لسعات اليعاسيب . ولا يذكر ما يصنعه هو في القرية بين الفينة والأخرى من رعب وهلع وقتل وتشريد.

كان هذا ما يفكر فيه كبير القرية أبو شيخة حين فاجأه الشيخ حميد بسؤاله:

لعلك تشاءمت مني الآن ؟

معاذ الله ، وما حملك على قول ذلك ؟

لقد أصبح المستعمر لا يني عن حرب بلدتك بعد أن سكنت في جوارك. لا أبدا ، لقد اعتدنا على صنيعه ، قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . لكن النصر الرائع بفضل الله كان من بركات وجودك بيننا ووقوفك معنا. على كل حال لا بد من وجود حل لوقف صنيعه ، العثمانيون مشغولون عن نصرتنا بصراعهم مع الدولة الصفوية ، وجيراننا ضعاف ، يصل بهم الخوف منه إلى أن يقفوا في صفه أحيانا ويلصقوا فينا التهم ، ويكيلوا علينا اللوم .

والمستعمر لا يكتفي بنهب خيرات المسلمين من الهند والسند ، بل لا يفتأ دأبه يجرب سلاحه في تدمير حمى المسلمين ويجرب ألاعيبه في التشتيت والتفريق بين الأحبة .

الحمد لله على سلامة الجميع على كل حال ، لسوف أتدبر

الأمر إن شاء الله لوضع الخطة المناسبة لمنع المستعمر من هذا الطيش والهدم والتخريب . فلا أقل من أن نعقد اجتماعا مع السلطان نتباحث معه الأمر .

٨

يوم ودع أبو راشد أهله للرحلة الطويلة لم تصدق أم راشد ذلك الحزن الذي انهد عليها ، باتت تلك الليلة مريضة ، ولولا اتصالاته المتكررة كلما توقف عند محطة ، أو صعد جبلا أو نزل بواحة أو خميلة ، وتطمينها بأن رحلته لن تكون طويلة كما خطط لها ، بل سيكتفي ببعض الأشعة التي تنير له الطريق لطال بها المرض مثل أبيها، ولما تحسن حالها.

كتب إليها :

بسم الله الرحمن الرحيم . أقال الله عثرتك أيها الغالية ، أسعدني تحسن صحتك ، ولولا حضك لي على الاستمرار لقطعت مشروعي من أجل الوقوف إلى جانبك، وأجدني أعذرك اليوم أن بقيت بجوار أبيك. كنت طوال الطريق أنظر إلى القمر ، وكان ينظر إلي هو الآخر، لا يفارقني ، الفرق بينك وبينه أني أسمعك حين تتحدثين ، ولا أسمع مساررته إلا بقلبي وخيالي.

كان كلما عصفت بي يد النوى يقول لي: أنا من عينيك أدنيها . . . أنا آتيك بمعنى من معانيها .

هذه محطتي الثانية أيتها الحبيبة، عند ابن القاضي عبد العزيز، لعلك سمعت عن القاضي عبد العزيز ، فرح بقدومي إليه كثيرا ، وكان حديثي معه رائعا .

قصصت عليه قصتي ، وطلبت منه أي شيء يساعدني في الوصول إلى جدّي .

قال : أنا ابن القاضي ، ولدت مثلك في البلدة ، لكني أجدك تفخر بأبي أكثر مني ؟

كان أجدادنا يمتهنون المهن اليدوية ، لكن أبي كانا تواقا إلى طلب العلم الشرعي، استأذن من أهله ليطلب العلم ، ولما لم يأذنوا له هرب منهم والتحق بالشيخ المانع ، أحد علماء إمارات ساحل عُمان فتتلمذ على يديه . ثم بعدها سافر إلى مكة وتنقل بين حلق العلم هناك ، ثم فتح حلقة بنفسه يدرّس فيها.

وفي مكة تعرف على بعض أعيان جعلان ، وعرضوا عليه أن لو جاء جعلان نصبوه عليهم قاضيا ، فوعدهم خيرا ، ورجع إلى الإمارات، فوجد ظروف العيش صعبة ، وفتح في عجمان مدرسة يعلم فيها القرآن الكريم والكتابة ، مع الشيخ عبد الكريم البكر .

في أيام إمارة الشيخ خالد من آل حمودة سافر إلى جعلان ، فأوفوا بوعدهم وعينوه قاضيا، وظل معهم ثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر سنة .

ثم رجع للإمارات وعمل مفتيا للقاعدة الموجودة في المنامة في الشارقة، لكنه لم يطب له هذا العمل مع الإنجليز ، وجاءته دعوة من قطر ،

من الشيخ حمد بن حجران ، فوصل إلى قطر سنة ١٩٦١م ، على أن يكون قاضيا، لكن لكبر سنة عينوه إمام مسجد . وحين تأسست دولة الإمارات جاءته دعوة من حكومة الشارقة ، فرجع سنة ١٩٧٥ ، وتوفي رحمه الله في الثمانينات .

قلت : جميع البلدة تفخر بأبيك ، مآثره لا تزال شاهدة ، وطلابه يبثون علمه، لكن طلبي الملح الآن هو البحث عن الجذور .

فكر ، وفكر طويلا ، وأنا أنظر إليه يحك رأسه ، ويقوس حاجبيه ، ويزمّ شفتيه، وينظر للأعلى ثم للاسفل ، ويضع رأسه في يديه ، ثم قام مسرعا وعاد يحمل في يديه حقيبة ، كان يسير وينفض الغبار عنها :

هذا كل ما أملكه من تركة أبي العلمية ، لعلك تجد فيها ضالتك .

ثم ودعني وهو يقول : إنني متفائل أنك ستجد في تركة أبي البوصلة التي توصلك إلى قضيتك .

في الفندق فتحت الحقيبة فلم أجد فيها غير هذه القصة :

((الكثيرون طلبوا العلم عند القاضي عبد العزيز ، لكن أعجبهم كان ذلك الذي تعلم معه القراءة والكتابة ، وما إن بدأ يدرج ويعرف لذة الغربة والترحال حتى سمع عن مغامرات السفر إلى قلب الجزيرة . كانت السفينة التي أقلتهم مصنوعة صناعة محلية من الخشب الهندي الممتاز ، وأشرعتها القوية تتحدى الرياح ، وقائدها الماهر

يختال بها في عباب الموج ، ويوفق للنزول في أي من المواني على الطريق ، أما صاحبنا فكان كثيرا ما ينعزل عن أصحابه ، يجلس بمفرده ، حتى أصبح حديث السمار ، يقول بعضهم عنه : إنه عاشق مشتاق ، والبعض يقول : لعله أصابه البحر بمس ، وإنما كان يشغله نوع العمل الذي سيختاره.

كان يميزه عن زملاء رحلته أنه تلميذ القاضي النجيب وأنه يجيد القراءة والكتابة ، الكنز الذي أحرزه بصبره على ثني الركب عند القاضي.

نزل في الميناء، ثم رحل منه إلى قلب الجزيرة ، وهناك نزل في بيت سليمان بن عبدالله الرواف .

كثير من زملائه لم يلبثوا أن انخرطوا يعملون صبيانا مع عائلات سرية.[1]، وبينما كان يجلس معهم ذات يوم ، فاجأهم أنه يزمع الرجوع إلى البلد ، فأيهم يرغب في الكتابة إلى أهله فإنه لا يمانع أن يكتب ويوصل الرسائل إلى كل بيت، لكنه وضع تسعيرة: الكتابة بروبية، والتوصيل بروبية أخرى.

وافق الجميع ، وبدأ في الكتابة ، وحين انتهى واستلم أجرته اشترى طحينا ، وسافر ، ثم كانت هذه مهنته . كاتب وساعي بريد، وتاجر طحين، يذرع الخليج جيئة وذهابا .

وحينما أثرى رحل إلى الحج مرورا بقلب الجزيرة وهناك نزل في منزل سليمان بن عبد الله الرواف)).

١- سرية بفتح السين : أي غنية .

أصبحت الآن أمام لغز ؛ فما دخل هذه الرسالة في توجيه بوصلتي، الأمر الأكيد أنه لا علاقة لجدي بالميناء الذي كان يروح ويغدو منه التلميذ النجيب ، فهل يكمن الحل بقلب الجزيرة ، وما علاقته بسليمان بن عبد الله الرواف . أجدني في أشد الحاجة إلى عقلك الآن، وأتمنى لو كنت معي فتخففي عني ما أجده من الحيرة، أرجو أن تعيشي معي المحنة ، وتوافيني بما يوصلك إليه تفكيرك . .. المخلص في حبك ، والمحتار في قضية بحثه : أبو راشد .

وكتبت إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، السلام على زوجي الرائع ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

أحمد الله إليك ، وأكبر فيك همتك .

عرضت لغزك على أبي، وإنه يقرؤك السلام ويثني على جهودك ، ويبشرك أنك قاب قوسين أن أدنى . فإن سليمان هو ابن عبدالله الرواف الذي كان قاضيا سابقا رائعا في البلدة .

ويطلب منك أن لا ترجع إلينا بل استمر إلى قلب الجزيرة واسأل عن سليمان هذا أو أحد أبنائه ، فإن سليمان لم يرحل من البلدة إلاّ قبل أربعين سنة . فإن كان حيا فسيفيدك حتما إن شاء الله ، وإلا فلعلك تجد جوابا شافيا مع أحد أبناء سليمان . . . أم راشد المشتاقة إليك .

٩

طال به المقام في قلب الجزيرة قبل أن يكتب إليها الرسالة التي اشتاقتها هي الأخرى . . كان يتلقى رسائلها في هاتفه ، (ما الأخبار)، يتردد في إجابتها ، يخرج هاتفه ، ثم يتركه ، وذات ليلة كتب لها :

بسم الله الرحمن الرحيم . سلام من الله على قلبي الحائر بيني وبين بر أبيه.

لقد وصلت بحمد الله ، قلب الجزيرة .. فيحاء هائلة تغاير اسمهما، ورياض وواحات تحتضنها جبال ، لكن الناس هنا يقولون : إن عصر النفط لا يفتأ يغيّر من شكلها ، أخرج الناس من تدثرهم بالجبال ، فسكنوا في الهضاب العالية .

أقدم اعتذاري على تمهلي في الكتابة إليك ، وإنما أردت أن أختبر وقع اشتياقك لمراسلتي .

أخبرتك مرة أن جدنا حارب الأصنام ، قرأت في عينيك يومها الحيرة، هل كان قدوم جدنا في زمن الأصنام ؟ ولو صدق هذا الظن لكان بيتنا قبيلة بأكملها ، بل قبائل ، لكن قدوم جدنا إلى البلدة كان في القرن التاسع عشر أو ربما قبله بقليل . فما معنى الأصنام إذن في بلاد سكانه مسلمون ؟.

في هذه الرسالة أحببت أن أجيبك على هذا السؤال الذي قرأته في عينيك .

معنى الأصنام- ياعزيزتي - في يوم قدوم جدنا إلى البلدة هي عبادة القبور ، ولهذه التسمية أصل؛ فإن الأصنام التي عبدها قوم نوح لم تكن غير قبور وصور أناس صالحين من قومهم ، مجدوهم وقدسوهم ، ولما طال عليهم الأمد عبدوهم ، تماما كما حدث لكثير من صالحي الجزيرة وغيرها .

جاء جدي إلى البلدة فوجد الناس يعبدون قبورا ، ينذرون لها ، ويغنون لها، ويقومون بطقوس عبادة خاصة لهذه القبور ، لعلك سمعت بما بقي من القبور التي مازالت تعبد .

أما أهل البلدة فكانوا مسلمين ، لهم مساجدهم الكثيرة ، يصلون ويصومون، ويحجون .

سكن جدنا البلدة ، فبدأ يعظهم حول عبادة القبور ، ويبين لهم أنّ الأموات أحوج للدعاء من الأحياء، لكن أعيان البلدة شنوا عليه حربا شعواء، وطلبوا منه أن يخرج من بينهم .

فاعتزل جدي البلدة ، وسكن في ضاحية قريبة منها ، ولجأ إليه طلابه، وأحاطوا مسكنه بمساكنهم .

في تلك الأيام خرجت القبيلة الأكثر مناوأة لجدي في غيّها ، تقرع الطبول عبادة لصنمها ، وتزمر ، ويملأها الزهو والخيلاء ، ويؤزها الشيطان بالمكاء والتصدية ، وظلت تطبل وتطبل سبعة أيام ، يمشون وينزلون حيث أواهم المبيت ، فلما وصلوا إلى ممر البطحاء أرسل الله

إليهم وادي البطحاء فأخذهم الله به .

ولما رأى أهل القرية صنيع العظيم الجبار النازل على أشد القبائل حربا لجدنا ثابوا إلى رشدهم ، وطلبوا من جدنا أن يعود إلى القرية ، ونصبوه قاضيا ، ثم أميرا ، فلم يكونوا يخرجون عن أمره ونهيه ، وطمع في قربه فئام من الصالحين من القبائل المجاورة .

لقد استبشرت برسالتك التي تحمل حل أبيك لذلك اللغز الذي وقف أمامي كالصخرة الصماء . ولا أكتمك سرا فإنني بحمد الله وصلت إلى مبتغانا ، سأكون بينكم بعد يومين ، جهزي لي احتفالا ، واجمعي كل أفراد الأسرة ، لا أريد أن يتخلف منهم أحد ، ولا يحضر إلا من كان من أسرتنا . . . زوجك المحب.

١٠

ضجت قاعة الاجتماع بالتصفيق حين قدمت زوجها بقولها : سوف ننصت لساعات لابن بطوطة العصر ، يحدثنا عن مغامراته الرائعة ، وإني متأكدة أنه سيجيب على كل تساؤلاتكم حول الجذور فلا تسأموا أن تكتبوا أي سؤال يخطر على بالكم لتطرحوه بعد المحاضرة .

وهنا بدأ الحضور بتهامسون بالنكات : قالت سارة : ابن بطوطة كان مزواجا، يتزوج من كل قرية يمر بها ، وقالت أم حمد : لكنه لم يخلف أبناء ، وقالت علياء: مسكينة أم راشد ما يدريها كم من زوجة أخرى تنتظر عودته، قالت سارة : يقولون إن عنترة خاض صحراء الربع الخالي من أجل أن يأتي بمهر عبلة مائة من النوق الحمر من عُمان.

وفي قسم الرجال كان الشباب يتهامسون كذلك: سنسافر معه في الرحلة القادمة ، لن ندعه يسافر وحده ، حتى لو وصل بنا جزر الواقواق .

ولم يصمتهم إلا ضرباته الهادئه على المكرفون حين بدأ أبو راشد بحمد الله والثناء عليه ثم قال : ظلت ردحا من الزمن في قلب الجزيرة أسأل عمن يوصلني إلى بيت الرواف ، وكانت المفاجأة يوم

التقيت بذلك الشاب ، الذي أخبرني أن بيت الرواف بيت كبير معروف .

في المساء أخذني إلى المكان وانسحب . بعد أن أخبرني أن أطلب منصور ، مدير الشركة.

المكان واسع فعلا بين أبيات عائلة الرواف ، وبين مقر شركاتهم ، أخبرني الشاب أن كل هذه الساحة لهم ، ولهم مقرات أخرى ، ردهات الإدارة التي فيها منصور كبيرة أيضا ، والموظفون كشغالات النحل ، لا يهدأون .

دخلت على منصور ؛ مكتب واسع ، وترتيب أنيق ، قدمت إليه نفسي ، وبعد ترحيب يسير قال لي مداعبا : كم أتمنى أن أزور البلدة لولا أن أبي حذرني بقوله : البلدة ليس فيها إلا القتل .

فرددت عليه مداعبا أيضاً: هاأنذا حي بين يديك . وأرجو ألا تحسبني من القتلة .

قال : قتلوا هناك جدي .

قلت : إنما جئت إليك لأعرف عن جدك ، ذلك القاضي الرائع ، الذي لا يذكره الناس هناك إلاّ بالإكبار ، أسأل عن تركته العلمية ، لأبحث فيها عن الجذور.

قال : إن أبي ودع منذ سنوات قليلة ، لكن وصيته وكلماته تلك لا تزال تطن في أذني كلما هممت بشد رحلي إلى البلدة .

دعاني لتناول طعام الغداء في بيته ، وهناك شرع يحدثني عن جده عبد الله الرواف .

« كان قاضيا هنا ، ومن أعيان هذه القرية ، حينما جاء أمير الجزيرة لينحي أمير القرية ، طلب من جدي البيعة ، فأبى معتذرا أن في عنقه بيعة أمير آخر، أمير القرية ، فطلب أمير الجزيرة من جدي أن يخرج من هذه القرية » .

كنت أستمع إليه ، وأستمتع بالنظر إلى تعابير عينيه ، وبسمته وعبوسه ، كأنني أشاهد فيلما ، يضم يده ويبسطها ، ويرفع صوته ويخفضه، ويتذكر أحيانا ثم يعود إلى الحديث .

سألته: كم مكث القاضي الرواف في الشام قبل أن يصل إلى البلدة؟ وفي أي قرى الشام كان نازلاً؟ .

قال : ستأتيك الأنباء، سافر جدي إلى الشام في العشرينات تقريبا ، وحين عرف الناس عن علمه نصبوه قاضيا هناك ، لكنه سرعان ما اعتذر لهم عن القضاء ، وسافر إلى اليمن .

لم يكن اليمن الذي نزل فيه أسعد حظا به من الشام ، فلم يستطع الصبر طويلا فيه أيضا حتى التقى بأمير عُمان ، ولما أُخبر أمير عمان عن تمكنه من القضاء ، وخبرته ، ومذهبه ، نصحه أن يصحبه ليعيّنه قاضيا على البلدة، فمذهب البلدة هو مذهبه .

وهنا بدأت قصة جدي وأبي مع البلدة .

أبو ك ، ما دخل أبيك ، هل ولد أبوك في البلدة ، هل كان يسافر مع جدك في جميع هذه الرحلات .

قال : اصبر ، القصة طويلة ، لا أستطيع أن أتمها اليوم، فإنني مشغول كما ترى ، أحتاج أن أراك مرة أخرى .

خرجت من عند منصور تغمرني السعادة لوصولي إلى أمنية كنت أحلم بها منذ أمد ، ويغمرني الأمل أن أعود لإكمال القصة ، ويغمرني الحزن أيضا ، لأنه لم ينبس ببنت شفه حول هدفي الأول : جذور جدي .

سوف أوزع رقم منصوور على أعيان البلدة ، وسأطلب منهم أن يتواصلوا معه ، كلهم سيستبشر ، لكن الجيل الذي غرسه القاضي بيده ، وسقاه عذب ينبوعه قد انقضى ، وكذا الجيل الذي عايش ابنه.

ماذا عساه يكون الأمر الذي جعل القاضي الرواف يترك الشام واليمن ويختار البلدة ، كيف ترك نهر دمشق الرقراق ، ومنارات الجامع الأموي ، ومجاورة البحر الأبيض ، وأجواءه الماطرة ، أحقا أن الذي أخرجه البدع ، وأي البلاد يخلو من البدع ؟

ألا يمكن أن يكون الذي أخرجه الاستعمار ، فقد كان الاستعمار أيامه معشعشا في الشام . لم تطب نفسه أن يرى الغراب ينعق في مرابع الصقور.

لكن لو صدق ظني وحدسي فما الذي أخرجه من اليمن أيضا ، لم تستعمر اليمن، شمالها على الأقل ، أتراه نزل في جنوبها ، فلم لم

ينتقل إلى الشمال، أترى أمير عُمان عاجله قبل أن يفكر في اختيار المكان الأمثل من اليمن ، فأغراه بسكن البلدة ، فلمّا علم أن الضرب ضرب أبي محجن ، والكر كر البلقاء اشتاق أن يسكن قريبا من أرواح موطنه الأول .

أمطار كثيرة سقطت ذلك اليوم في قلب الجزيرة ، ذكرتني بروايات الأهل لأيام القاضي الرواف ، حكوا أن الأمطار انحبست أياما عن موسم هطولها إلى البلدة ، وأن امرأة أتت إليه وأخبرته أن بقرتها ما عادت تعطي الحليب الكافي، فاستدعى الأمير، وطلب منه أن يرفع إليه قضية خبأها عنه ، ولما استجاب الأمير ، ونفذ الحكم عادت البقرة إلى حليبها ، وعادت الأمطار إلى موسمها.

كل ما بقي معكم في البلدة من أخبار القاضي الرواف هو خبر ذلك اليوم الذي أطلق عليه شقي رصاصة . فارداه قتيلا .

كانت الأيام ربيعا ، وكان معظم سكان البلدة نزحوا أو (تربعوا) إلى الوديان المجاورة .

رواة الواقعة يقولون : قفز الشقي بيت القاضي ، وزرد نعجة من نعاجه[1]، فلمّا خرج القاضي ليستطلع خبر زعيق النعاج عاجله الشقي برصاصة أردته قتيلا ، ثم ولى هاربا .

يقولون أيضا أن الأمير أقسم يومها أن لا يهدأ له بال حتى ترتوي

١- الزرد: الخنق، قاله في العين الخليل بن أحمد الفراهيدي، قاموس العين ، وفي الدارجة يقولون للعقد الذي يحيط بالعنق : مزرد .

السيوف من دماء الخونة ، وربما دون فتح محضر تحقيق وتحري للوصول إلى القاتل، أقام حربا مجنونة بين البلدة والبلدة المجاورة لأن أصابع الاتهام توجهت إليها، ولم تهدأ أوار هذه الحرب الملعونة إلا قبل توديع الأمير للحياة الدنيا بسنة أو أكثر بقليل ، حيث هدأ هذا الأمير ، أو ربما شعر أن السيوف قد ارتوت، من الفريقين ، فأوقف الحرب .

إيه سنين الرعـب لا ترجعـي لا تقـربي داري ولا مضجعي
كلا ، ولا همـي ولا خاطـري لا مبلـغ الإبصـار لا مسمعي
ما فيك إلا الشـوك في طعنـه يختلط الجانـي بمـن لم يع

كم أتمنى لو كانت سيوف القريتين ارتوت من دماء المستعمر ، فما زالت مراكبه وبوارجه يومها تمخر البحار المجاورة ، تمنيت أن يكون من قتل قتل ببنادق المستعمر ومدافعه ، فيكونون شهداء ، هل كانت هذه أيضا أمنيات الأمير يوم ودع الحياة الدنيا؟ عساها تكون كذلك وغفر الله له.

عدت لمكتب منصور مرة دونما موعد، فوجدته مشغولا بضيوف ، وحينما انصرفوا عنه .

ألححت عليه أن يخبرني عما سمعه من أبيه أو جده الرواف عن جذورنا .

رجع إلى قفاه معتدلا في جلسته ، ثم تنهد ، ثم قام من كرسية، ودار حوله دورة كاملة ، ثم جلس، ثم حدجني بعينين واسعتين ، وقال : اجعلنا مع الفريق القائل: إن جدك كان أحد أبناء حكام قلب الجزيرة

هذه ، فحينما غزا الأتراك قلب الجزيرة وقضوا على دولتهم غادر جدك خفية متوجها إلى جنوب الجزيرة ، وسكن بلدتكم ، وحصل ما حصل ، ثم ناولني مقالا وقال : تأمل هذا المقال ، فإنه لمازن الفريح ، مؤرخ مشهور عندنا، ينبيك بالخبر اليقين.

عاجلتني دمعتان . . نهضت واقفا ، تقدمت جهة منصور . . فاجأته حركتي فنهض قائما هو الآخر ، اقتربت منه ، طوقته بذراعي ، ضغطت عليه بشدة حتى سمعت فرقعة أضلاعه ، استحييت فأرسلته، ومسحت الدمعتين من عينيّ .

قال : ألم أقل لك أنكم قتلة ؟

قلت : شتان بين قتيل الحب وقتيل الحرب ، وكدت أن أتمثل بقول الشاعر . . . . . .

أستغفر الله . . . . ثم تنهد أبو راشد ، ثم سكت .

صفق الحضور طويلا ، وسالت دموع أبي راشد أكثر ، ورأى دموع الحاضرين تشاركه ، وأقبلوا عليه يلتزمونه ، بعضهم كان يضغطه كضغطته لمنصور الرواف ، والبعض يخفي مدامعه بابتسامه .

سأله سالم : ماذا ستفعل بمغامراتك هذه ، هل ستظل حبيسة صدرك وصدورنا لتموت معنا ؟.

وقال ناصر ، وكان من صحبه المشاكسين : هذا إعلان من أبي راشد ودعوة للبدة أن تكمل مغامرات جده الأول في ملاحقة المستعمر .

وقال حمد ، وكان أستاذا جامعيا في اللغة العربية : أرى أن تخرجها

للناس في عمل روائي .

ظلت القرية تعيش يوما في احتفال صامت ، الكل يتحدث عن مغامرات أبي راشد ، وكان الشباب يتواعدون على إعلان حفل عام يقام لكل القرية ، لا مانع أن تستدعى القرى المجاورة يضعون في يوم الحفل هذا نصاب ذكرى لهذه الرحلة العجيبة يكتبون عليه نتائجها .

لكن الأقدار كانت تخبيء شيئاً آخر ، في اليوم التالي فاجأهم صوت النعي بوفاة أب أم راشد .

أما أم راشد فصرخت ، وأما أبو راشد فركض إلى زوجته يواسيها ويخفف عليها ، ويذكرها أنها كانت طوال العهد الطبيب الذي يداوي الجميع.

مات ذلك الشيخ الصامد المشجع للبحث ، الحافظ للتاريخ ، لقد رحل الشيخ أب أم راشد قرير العين بعد أن سمع بأذنيه حكاية أبي راشد ، واكتشافه للجذور، والتي عايشها بقلبه ووجدانه.

تـــذييـــل

يقول الدكتور نجيب الكيلاني (رحمه الله) : (إنني اشعر بانجذاب لا يقاوم نحو تاريخ أمتنا العريقة ، فلا أقل من القراءة فيه والتعمق في أحداثه ، ورسم صورة نفسية لإنسانه) أنتهى.

وأذكر أنني قرأت رواية أو قصة متوسطة الحجم باللغة الإنجليزية، جاء فيها ذكر عارض لحروب دولة الهند المسلمة للاستعمار ، أقل من نصف صفحة ، هذه الفقرة من تلك القصة جعلنتي أقرأ ما يقارب الأربعة كتب عن تاريخ الهند ، ثم تاريخ فيتنام ، وتبين لي أنها كانت دولة مسلمة كذلك . وقرأت تاريخ الصين ، بل تاريخ الإسلام في الصين .

كان يشغل بالي وأنا أكتب هذه القصة أمران :

الأمر الأول : هو أجزاء من التاريخ صغيرة لم يكتب عنها ، كانت تمثل في أيامها لبنات لإعادة الأمة إلى رشدها . تلك الواحات في صحراء التاريخ المعاصر ينبغي ألا تهمل . ولكم هتفت في من حولي أنه ينبغي أن تنبري أقلام لسد تلك الثغرات ، وملء تلك الفجوات المنسية ، فلما لم أجد أذنا صاغية ، عزمت أن أشارك بقلمي وأن أمضي في الطريق عساي أكون الخطوة الأولى في طريق الألف ميل ،

وأضع اللبنة الأولى في هذا الجدار الذي بدأته ، ويكفيني أنني بدأت شق الطريق ، فإن الواجب يقتضينا أن نبدأ .

أما الأمر الثاني : فهو أن الكثير ممن كان لهم شأن من قضاة وعلماء لم يسجل شيء من مآثرهم ، ولعلي بعملي هذا أوف بشيء من حقوقهم . وإنما هذا عمل فني ، ليس كتابا في التاريخ ، يحلل أحداثه الكبرى تحليلا عاما منعزلا عن النفس الإنسانية للفرد .

مهمة العمل الفني أن يتناول الإنسان الفرد ، يناجيه ويحاوره، ويبحث عن أحلامه وآماله في تلك الفترات، ويعرض مشاكله وانعكاس ذلك على سلوكه، وارتباط ذلك كله بالعمل الكبير . العمل الفني إذن تأريخ نفسي إن صح هذا التعبير .

ولذلك تظهر في القصة شخصية القاضي حميد ، والقاضي عبد العزيز، والقاضي الرواف . وهي شخصيات أو رموز لشخصيات كان لها وزنها في عصرها .

أبو راشد : مثال وصورة للشاب المهتم بالتاريخ ، والذي يقرأ من تاريخ أمته أمجاد مستقبلها ، ويصر على تتبع تفاصيل الأحداث إلى النهاية .

أم راشد : صرخة للزوجة الصالحة التي لا تكتفي بخدمة زوجها

وأبنائها في بيتها ، بل تشارك زوجها همة ، كما تشاركه هموم الأمة .
الشيخ حميد : مثال لملاحقة الاستعمار، وهو نموذج يتكرر في تاريخ الأمة، وما مؤسس دولة المرابطين إلا من هذا النوع .

هناك شخصيات أخرى عسى الله أن يهيئ أقلاما أخر تنبري للكتابة عنها لتكون مفخرة لأجيالنا وأسوة في كفاحهم ووضع بصماتهم إكليلا في جبين التاريخ .

جمعة العلوي
جعلان بني بو علي

السيرة الذاتية للمؤلف

المعلومات الشخصية:

الاسم : جمعة بن خادم بن سليم العلوي .

الجنسية : عماني

تاريخ الميلاد : 01 /09/ 1385 هـ .

للتواصل : 00971503672707 - 0096899337311

العنوان : ولاية بني بو علي المنطقة الشرقة (عمان) .

الحالة الاجتماعية : متزوج ولي 7 من الأبناء .

البريد الالكتروني: :

juma_khadim@hotmail.com | juma_khadim@yahoo.com

المؤهلات العلمية:

- درست على فضيلة شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله 1416 – 1422هـ ، الموافق أواخر 1995 إلى 2002 م .
- بكالوريوس إدارة نظم معلومات ، جامعة أريزونا، توسان ، أمريكا ، 1989.
- بكالوريوس شريعة، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (فرع القصيم) ، 2002.
- ماجستير الفقه وأصوله ، جامعة الشارقة ، 2007، عنوان الرسالة :

مسائل فقهية معاصرة في الحج والعمرة .

- برنامج الشهادة الدولية (المدرب المتميز DTA) من مركز منارات للاستشارات 2010م .
- مدرب معتمد في القاعدة النورانية من مركز الفرقان بجدة 2011 .

الخبرات العلمية والعملية:

- دورة فقهية في فقه الطهارة ، وفقه الصلاة ، وفقه الصيام ، وفقه الزكاة، وفقه الحج .
- يمكن الاستفادة من خبراتي وقراءاتي الأدبية في عمل دورة في بدايات الأديب والشاعر .
- دورة في تجويد القرآن في نادي الوحدة الرياضي في سلطنة عمان .
- دورات في القاعدة النورانية لتسريع القراءة وتجويد القرآن لمدة أسبوع..

للحجز إتصل : 0096899337311

الإصدارات:

- المسائل الفقهية المعاصرة في الحج والعمرة. (كتاب)
- ليلة سغوب. (قصص قصيرة)
- يـا رب. (ديوان شعر)